الطقوس والشعائر الدينية الممارسة لمواجهة الجوائح والكوارث في الغرب الإسلامي خلال العصر الحديث

د.ادريس بلعابد
أكاديمية الجهة الشرقية. وجدة. المملكة المغربية
benali98@hotmail.com

الملخص:

كانت المزاوجة بين الاعتقادات والحلول المادية من سمات أسلوب تدبير العامة للكوارث والأوبئة والأزمات بالغرب الإسلامي خلال الحقبة الحديثة، وتعد الاعتقادات أو ما يمكن اعتباره تدابير روحية، من بين الحلول الأكثر اعتمادا ـ كما تشير إلى ذلك مختلف أصناف المظان التاريخية ـ التي لجأت العامة إلى تنفيذها لتجاوز آثار الكوارث والأوبئة والجوائح بالغرب الإسلامي بمجالاته الجغرافية الثلاث خلال الحقبة التاريخية الحديثة. فالطقوس والشعائر الدينية كانت حاضرة كأحد أساليب تدبير الكوارث والأزمات والتخفيف من حدة آثارها. وتراوحت هذه الأساليب بين الشعائر الدينية كصلاة الاستسقاء والدعاء والطقوس كزيارة الأضرحة والاعتقاد في كرامات الأولياء والمجاذيب.

وشَكَّلَت الفتاوى كذلك نموذجا للأساليب الدينية المدبرة للكوارث والأوبئة، فكتب النوازل الفقهية المتضمنة لهذا الصنف من أساليب التدبير، كشفت عن خصوصية انفرد بها الغرب الإسلامي، ألا وهي مواكبة الأحداث الطارئة وتنزيل المعاملات المرتبطة بها على أصول الشريعة بغرض ضبط المسببات و علاج الأعراض، والتوعية بأساليب الوقاية. وقامت مؤسسة الزاوية بدور اجتماعي من خلال إيواء ضحايا الكوارث والجوائح وإطعامهم.

الكلمات المفتاحية: الغرب الإسلامي/ الطقوس/ المعتقدات الدينية/ الجوائح / الزوايا

Abstract:

The combination of beliefs and material solutions has been characteristic of the method of public management of disasters, epidemics and crises in the Islamic West during the modern era, and beliefs or what can be considered spiritual measures, among the most reliable solutions, The public resorted to its implementation to overcome the effects of disasters, epidemics and crises in the Islamic West in three geographical areas during the recent historical era. Rituals and religious rituals were present as a method of disaster management and crisis mitigation.These methods ranged from religious rituals such as prayer to asceticism, supplication and rituals such as the visit of shrines and belief in the dignity of the elders and the courts.

The Fatwas were also a model of the religious methods of disasters and epidemics. Alnawazils el Fikhia books included with this method of management revealed the unique peculiarity of the Islamic West, which is to keep abreast of the emergency events and to download transactions and related behavior on the principles of Sharia. Symptoms and awareness-raising methods. Al Zawiya Also has played a social role by sheltering and feeding victims of disasters and crises.

مقدمة:

كانت بوادر ظهور الكوارث والأوبئة تعني بداية مرحلة إبداع لحلول الخلاص، فتوالي الأزمات بمختلف أصنافها بإفريقية والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى خلال العصر الحديث، فرض البحث عن أساليب ناجعة لمواجهة آثارها. وكانت تبدأ كرد فعل لتتحول إلى إجراء يسعى لتجاوز مسببات هذه الأزمات، خاصة إذا كان الاعتقاد أن الفعل الإنساني مسؤول عن ذلك، فكان القيام ببعض الشعائر والطقوس من بين ردود الفعل المعتمدة.

أولى الشعائر الدينية التي حضرت بقوة خلال فترات الأزمات، تمثلت في صلاة الاستسقاء وبعض طقوس الاستمطار التي كانت بمثابة الحل الذي لجأت إليه عامة الغرب الإسلامي مرارا خلال فترات القحط والجفاف. و لعل ما يبرر ذلك وجود سند و تأصيل شرعي لهذا النوع من شعائر الاستنجاد. فكما تشير المصادر التاريخية في إفاداتها، فعلاقة عامة الغرب الإسلامي بالمطر كانت تأخذ طابعي الرغبة والخوف لذلك كان الدعاء عادة ما يجسد هذه الثنائية، إذ تضمن مناجاة الله عز وجل بإنزال المطر ولكن المتسم بصفة النفعية.

كانت العلاقة مع المطر محكومة بإكراهي الجفاف والسيول. وإذا كان المسلمون رأوا في هذه الصلاة الوسيلة لتجاوز زمن الشدة والمسغبة، فاليهود اعتمدوا الصوم والدعاء طلبا للمطر. وكانت طقوس مختلفة ترافق الاستسقاء وقد مارسها المسلمون واليهود على السواء. وكان كذلك الاعتقاد في كرامات الأولياء والمجاذيب ملاذا لجزء من العامة الراغبة في مواجهة الجوع والوباء، كما كان للفتاوى الدينية نصيب في تدبير الأزمات وخاصة الأوبئة. و و قامت الزوايا كمؤسسة دينية بدور اجتماعي تجسد خاصة في الإيواء والإطعام خلال فترات المساغب.

<u>أولا</u>: الاستسقاء والصوم

كانت صلاة الاستسقاء وما يرافقها من طقوس في مقدمة الأساليب التي تم التفكير فيها كحل، وبالتالي كانت تقام عادة بعد انحباس المطر. فالماء له حضوره المقدس في المخيال الجماعي بالغرب الإسلامي باعتباره أصل الحياة وما يزكي ذلك السند القرآني [1] المجسد في الآية الكريمة المتضمنة لقوله تعالى : "وجعلنا من الماء كل شيء حي" [الآية 30 . سورة الأنبياء] هذه المكانة رفعت الماء إلى مرتبة القدسية جمعت فيه صفتي الخصب والعقاب، ونذرة هذا المورد كانت بداية لممارسة شعائر وطقوس و لو اقتضى الأمر تكرارها لمرات، ويصدق ذلك على سنة 1044هـ/1634م، فمن قلة المطر عطش الزرع، فكرر الناس صلاة الاستسقاء،[2] كما كانت تقام بعد الغلاء والمجاعات، "ففي عام 1091هـ/1680م حدث غلاء بسبب تأخير المطر (...) وصلى الناس صلاة الاستسقاء مرارا."[3]

ورغبة في إعطاء هذه الشعيرة قيمتها، كان السلطان أو الحاكم هو من يأخذ المبادرة للدعوة لإقامة صلاة الاستسقاء ويحرص على المشاركة فيها. فالمولى إسماعيل خرج سنة 1680م مع " الرعية لطلب الاستسقاء، مكشوف الرأس حافي القدمين لابس رث ثياب المهنة المؤذنة بغاية العبودية والتذلل والانكسار."[4] وكانت تصاحب بمجموعة طقوس، ففي نفس السنة(1680م) وطلبا للمطر، أمر السلطان الفقهاء والصبيان بالتطوف على أضرحة الصالحين والمساجد، وخرج بدوره حافي القدمين في مذلة مصحوبا بحاشيته و كبير من رعيته. [5] وفي عام 1094هـ/1683م تأخر المطر وكررت صلاة الاستسقاء وأطعم المولى امحمد (ابن المولى إسماعيل وخليفته على فاس) الطعام بزاوية سيدي عبد القادر الفاسي بقصد الاستسقاء[6].

هذه الطقوس وإن كان هناك ما يبررها شرعا، فهي جسدت جزءا من حلول مواجهة الأزمة التي يظهر من خلال الإفادات المصدرية أن أصلها لا يقترن بالعصر الحديث ، بل يعود إلى العصر الوسيط ، إذ يورد ابن أبي زرع الفاسي، فيمعرض حديثه عن قيام السلطان المريني "أبي سعيد" بأداء صلاة الاستسقاء بعد موجة القحط التي عرفتها البلاد

سنة 711هـ، فقد : "مشا على قدميه حتى وصل المصلى والفقهاء و الصلحاء والقراء بين يديه بالذكر." [7] كما زار قبر الشيخ أبي يعقوب الأشقر، و دعا الله هناك، ولم يرجع من هنالك إلا والمطر العام بجميع البلاد.[8]

كانت تتم الاستعانة بالصلحاء والعلماء لإقامة صلاة الاستسقاء، كما كانت تعاد أكثر من مرة، كما هو الشأن سنة 1680م، فقد " صلى الناس صلاة الاستسقاء مرارا ، فأول خطيب بها أبو عبد الله بردلة كرر الصلاة ثلاث مرات فنزل قليلا من المطر لا يكفي، ثم أعيدت الصلاة وخطيبها سيدي محمد البوعناني، ثم أعيدت وخطيبها الحافظ أبو عبد الله محمد بن محمد المرابط الدلائي، والقمح بستين أوقية و نحوها للوسق، ثم أعيدت وخطيبها الفقيه الصالح الزاهد أبو عبد الله سيدي محمد العربي الفشتالي، ومن عشية الغد نزل المطر الغزير المقنع الكثير فانحطت الأسعار."[9]

هذه الإشارة المصدرية تفيد مدى الإصرار على إقامة صلاة الاستسقاء وتكرارها خصوصا في السنوات التي كانت تسجل حدة القحط و الجفاف. كما أن الاستجابة كانت فورية في الحالة التي كان يأم فيها الصلاة بعض الصلحاء. وفي هذا الصدد يشير القادري أن المطر قبض في بعض السنين خلال القرن12هـ/18م، فطلب أهل وزان من محمد بن الطيب الوزاني " أن يصلي بهم الاستسقاء، فصلى بهم و خطب فأرسل الله تعالى المطر فورا عقب الصلاة و روى جميع بلاد الغرب وخصبت البلاد. [10]" وبموازاة إقامة صلاة الاستسقاء كانت تمارس شعائر من قبيل الصوم والبكاء و العويل و زيارة الصالحين و التشفع لله بالمصاحف[11].

عانى اليهود في الغرب الإسلامي بدورهم من فترات الضيق و الشدة الناتجة عن الجفاف، ورأوا في العبادة سبيلا لتجاوز هذا الوضع، وكانوا يخرجون بجموعهم ويطلبون الله[12]. و كانت شعائرهم قائمة على طلب الغيث، فصلاة الاستسقاء عندهم كانت تقام بالتزامن مع إقامتها لدى المسلمين، و يمارسون بالموازاة مع ذلك طقوس وشعائر و عادات شعبية، فيهود صفرو[13] كانت وجهتهم إبان أوقات الجفاف ضريح أحد الحكماء المدفون بسفح الجبل مصحوبين بخرقة دم الختان، ومرددين للابتهالات استنزالا للمطر[14].

ثانيا: الدعاء

كان الدعاء من الحلول التي تم اللجوء لها للتخلص من الأزمات، ودفع آثارها و تداعياتها. وكان بمثابة وسيلة روحية و التي لم تقتصر على المسلمين، بل شملت معتنقي الديانات الأخرى بالغرب الإسلامي كاليهود الذين كانوا يلجأون خلال زمن المساغب إلى إقامة الابتهالات في سائر معابد الملاح[15].

اقترن الدعاء عادة بالشعائر التي كانت تمارس لرفع الشدائد والأزمات، كصلاة الاستسقاء التي كانت عادة يعقبها ابتهال و تضرع لله عز وجل، بحضورالصبيان و الفقهاء و التطوف على أضرحة الصالحين[16]. وكذلك قراءة القرآن. فسنة 1071هـ/1660م " لم ينزل المطر بعد أكثر من شهرين، واستسقى الناس، واجتمعوا لقراءة القرآن و صحيح البخاري بالقرويين[17]."

خلال فترات الجفاف والجوائح عامة، كانت تردد ابتهالات وأدعية خاصة طلبا للغيث وانفراج الكرب، ومن نماذج ذلك الدعاء الذي أورده القادري والمعروف بالصلاة التازية ومضمونها: " اللهم صل صلاة كاملة و سلم سلاما تاما على نبي تحل به العقد، وتنفرج به الكرب، وتقضى به الحوائج، وتنال به الرغائب وحسن الخواتم، ويستسقى الغمام بوجهه الكريم وعلى آله وصحبه[18]."

وكانت الرقية أسلوبا لعلاج الأوبئة و الأمراض، فقد انتهج أولياء المغرب الأوسط العلاج بها باعتبارها علاجا شرعيا يستند على الدعاء و آيات و سور القرآن الكريم.[19] **أما في إفريقية، فقد رصدت المصادر التاريخية إشارات للأدعية التي كانت ترتل لمواجهة الكوارث والأوبئة، ومن ذلك الدعاء برفع الطاعون الذي كان يعلمه ابن عرفة لتلامذته، وهو ما نقله الرصاع ـ صاحب كتاب الأجوبة التونسية عن الأسئلة الغرناطية ـ بالسماع عن كثير من أشياخه تلامذة الشيخ ابن عرفة.**[20]

ثالثا: الاعتقاد في الصلحاء و المجاذيب

عُدَّت كرامات الأولياء بدورها من الحلول المعتقد في أهميتها. فوطأة الأزمات والمجاعات، جعلت العامة تلجأ إلى الاستنجاد بكرامات الصلحاء والأولياء في الاستسقاء أو بإطعام الطعام أو تكثيره، وكذلك الاستنجاد ببعض الفئات المعروفة بالبركة كالشرفاء.[21] فهذه الفئة كانت عادة ما يتم اللجوء إليها خلال فترات الأزمة، فالوفراني يذكر أن المولى الشريف كان " وجيها عند أهل سجلماسة، وكافة أهل المغرب يقصدونه في المعضلات، ويستشفعون به في الأزمات."[22]

وإذا كانت كتب المناقب هي التي يمكن أن تكشف جانب الاعتقاد في الكرامة كحل للأزمات الغذائية، فباقي المصنفات التاريخية لا تغفل هذا الجانب. وبالاعتماد على نماذج من الإشارات المصدرية، تتضح النظرة التي كانت للكرامات كجانب يرى فيه الحل للأزمة الغذائية خاصة، بما كان للشيوخ والأولياء من قدره للقيام بذلك.

من نماذج هذه الكرامات ما يذكره صاحب نزهة الحادي، الذي يشير أن نفرا من القبائل قدموا على الشيخ ابن المبارك، فأمر "أن تطبخ لهم العصيدة في قفاف من سعف الجريد. وجعلت القفاف على النار وأوقد عليها، إلى أن طبخ لهم ما أمر به الشيخ".[23] كما ذكر ابن عسكر أن الولي عبد الله الورياحلي كانت تظهر على يديه خوارق، وكانت تنزل بين يديه موائد من الطعام دون أن يدري أحد من أين تأتي.[24] وهذه الكرامات والشعائر التي سبقت الإشارة إليها، تظهر الهم الذي كان للناس خلال زمن الأزمات والمساغب ومختلف الحلول التي كان يعتقد أنها مخلصة للإنسان من أزمته.

وهَمُّ البحث عن الحلول، لم يقتصر على هذه الجوانب. أي الاستسقاء وطلب بركة وكرامة الأولياء والمتصوفة والصالحين، بل تعدته إلى حلول وأساليب تم التطرق لها سلفا. فهاجس الخوف من الوباء والجوع ولد لدى الناس خلال هذه الفترة الرغبة الجامحة في البحث عن العلاج و الغذاء بشتى الوسائل ، وإن تطلب ذلك العودة إلى طرق بدائية كالجمع والقنص والصيد.[25]

رابعا: طقوس و عادات غير إسلامية:

ظهور الأزمات بالغرب الإسلامي خلال الحقبة الحديثة، واكبته سلسلة من الطقوس والاعتقادات القديمة، فظهور الجفاف كان مناسبة تتجلى فيها بعض الاعتقادات التي كانت تحمل في طيتها موروثا من التعبير الرمزي ، وكان أبرزها "الطقس المعروف ب "تاغنجا" أو "تاسليت أونزار" أي عروس المطر،الذي يعد من أقدم الشعائر الاستسقائية، ويهدف إلى استمطار السماء حين تكون الأرض و المحاصيل مهددة بالجفاف و التلف و شح المياه[26]."

مارس المغاربة معتقدات أخرى خلال فترة القحط، وخصوصا ببلاد جبالة بالشمال وفي أجزاء من المغرب الأوسط و إفريقية، وذلك بخروج رجال القرية حفاة بأطفالهم و شيوخهم مع اعتماد طقوس تنتهي بذبح بقرة سمينة

في ملك عائلة معينة، يحدد لها ثمن رمزي ، و يأخذ كل واحد نصيبه من الوزيعة[27]. وكانت معظم هذه الطقوس في جوهرها جملة رموز عكست جزءا من البنية الذهنية للإنسان بالغرب الإسلامي وبحثه المستمر عن سبل الخلاص من الأزمات و تداعياتها.

خامسا: الفتاوى

وقفت النوازل الفقهية عند السلوكات المواكبة للكوارث والأزمات و الأوبئة، كما اقترحت نماذجا لحلول تراوح مضمونها بين الإشارة لأساليب الوقاية أو دفع المسببات أو علاج الأعراض وفق الضوابط الشرعية. وكان تحديد ضوابط الاستهلاك والدعوة للتكافل من نماذج الحلول المقترحة فقهيا للمساغب والكوارث.

أشارت الإفادات التاريخية الواردة بكتب النوازل الفقهية لمظاهر التآزر المعتمدة لمواجهة الأزمات الغذائية والجوائح بالغرب الإسلامي خلال الحقبة الحديثة. فقد "تطرقت بعض من هذه النوازل إلى ما يفيد أن تلبية حاجة الناس إلى الأطعمة لم يكن يحصل دائما وفق منطق التبادل التجاري".[28] بل كان يتم وفق طرق تتفادى التعسير خاصة خلال زمن المساغب كتبادل الأطعمة على وجه السلف. وكان الخبز من أكثر الأطعمة التي يتم سلفها، [29] وكذلك سلف الدقيق.[30]

وتضمنت الإجابات الفقهية الخاصة بنوازل الجوائح و الكوارث كذلك نماذج لحلول التخفيف والتي تباينت أخذا بمنطق نوع السبب و حجم الضرر، فالفتوى كانت تصدر أخذا بهذه الصفة. ففي حالة الجراد الذي يحط و يتوالد بالأرض المزروعة إلى أن يأتي على كل المحصول، فقد أفتى الفقهاء بأن لا شيء على مكتري الأرض من كرائها لأن ذلك من سبب الأرض. [31] أما إذا كان سبب الجائحة مخالف لذلك كاجتياح الفراشة لحقل كتان، فإن المكتري ملزم بالكراء، ما عدا " أن يشهد شهود عند القاضي أن ذلك الفراش الذي أكل الكتان كان كامنا في الأرض، وأنه يسوخ فيها كما يسوخ الجراد، و أنه من عيب الأرض. فإن ثبت هذا بشهادة سقط الكراء." [32] وقد أفتى الفقهاء كذلك بإسقاط واجب الكراء في حالة توالي القحط المضر بالزرع. [33] ويحمل هذا الجواب الفقهي نموذجا لحلول إنصاف المتضررين من المساغب و الأزمات.

ما ميز كذلك هذه المسائل الفقهية هو تفردها بالكشف عن جوانب تاريخية ذات طابع اجتماعي، ومن ذلك نظرة العامة واستفسارها عن الضوابط الشرعية للاستهلاك. فكان محتوى الأجوبة الفقهية مظهرا بدوره للأساليب التي يراها الفقهاء ممكنة لتجاوز آثار المساغب، وفي مقدمة ذلك الحث على التضامن، إذ تمت إجازة شراء الطعام للفقراء من الزكاة أيام المسغبة.[34] كما أجيزت مسألة المحتاج للصدقة. " فالذي لم يكن له شيء فالمسألة له حلال ويجوز أن يعطى دفعة واحدة ما يقوم بعيشه إلى آخر عمره".[35] وصدرت فتاوى تجيز بيع الأرض المحبسة على المساكين أيام المسغبة[36].

كان النهي عن التبذير كذلك من الغايات التي استهدفت الحفاظ عن الطعام، إذ بالرغم مما قد يتعرض له الطعام من ضرر، فإن الفتاوى كانت تدعو للحفاظ عليه، وخاصة إن كان كثيرا فقد سئل أحد الفقهاء: "عن فأرة وقعت في عين رحا الماء فطحنها، أيجوز أكل ذلك الدقيق؟ فأجاب: إن كان كثيرا فليؤكل، وإن كان قليلا فلا يؤكل".[37]

فكانت هذه النوازل الفقهية تستهدف الحفاظ على الطعام واستعماله رغم الضرر الذي قد يلحقه، خاصة في زمان المسغبة.[38] بل إن بعض المواد تم إنزالها منزلة الطعام، كنخالة القمح التي أصبح في حكم الإكراه[39] غسل اليد بها لأن فيها شبها من الطعام وقد تؤكل في سنين المجاعة.[40] وكانت من الأطعمة البديلة خلال فترة المجاعات.

كان للفقهاء من خلال ما طرح عليهم من قضايا تهم المساغب والأزمات، موقف من قضايا السلوك الاستهلاكي، فقد تتبعوا هذا السلوك و وزنوه بمقاييس الشريعة الإسلامية. وكان من بين القضايا التي عالجها الفقهاء خلال العصر الحديث مسألة الخروج عن حد الاعتدال في الاستهلاك، حيث تصدوا للظاهرة،[41] و فتاويهم عبرت عن هذا الموقف.

تجلى دور الفتاوى الفقهية كذلك في اقتراح حلول أخرى، رغم طابعها التجاري، فهي كانت من وسائل التخفيف من حدة الأزمات. ويتعلق الأمر بالمقايضة، فقد أشارت النوازل الفقهية إلى هذا الأسلوب من قبيل بيع الحوت بالشعير و العصير،[42] و مسألة بيع طوبة التين بجنس آخر من الطعام كالملح و غيره،[43] أو بيع الملح بالطعام.[44] وهل يجوز بيع اللحم بالطعام؟[45] وهذه القضايا تكشف عن أسلوب التيسير الذي اعتمد فقهيا خاصة خلال حقبة الأزمات.

الحفاظ على الموارد المائية نال نصيبه من الفتاوى، فقد شكلت نوازل المياه موضوعا أساسيا داخل كتب النوازل، و أشارت للمشاكل التي كانت تثار بسبب قسمة الماء، و تحديدا خلال حقبة الجفاف. كما استحضرت الفتاوى الفقهية دور المؤسسة الدينية في تقديم الإشارة للسلطان، وكذلك تقييم أحوال السوق، ومن القضايا التي برزت في هذا السياق، مسألة تصدير الحبوب إلى أوربا، فمن العلماء من لم يجزها، ومنهم من أجازها بشروط.[46]

كان الوباء والطاعون حاضرا في مضامين فتاوى الحقبة الحديثة بالغرب الإسلامي، و كان السؤال المحوري الذي طرح مرارا هو حول الجواز من عدمه بالنسبة للفرار من الطاعون، وقد قدمت في هذا الإطار أجوبة فقهية طرحت من خلالها ثلاث مبادئ أساسية مستوحاة من الأحاديث النبوية:

"- الطاعون رحمة وشهادة للمؤمنين الأتقياء وعقاب للكفار.

- إذا نزل الطاعون بأرض فعلى المسلم أن لا يخرج من تلك الأرض التي حل بها الوباء، و إذا سمع بوجوده في بلد، فعليه أن لا يقدم على ذلك البلد الذي أصابه الطاعون.

- انتفاء العدوى بناء على حديث « لا عدوى و لا طيرة ».[47]"

سارت العديد من الفتاوى الصادرة خلال هذه الفترة في اتجاه الوقاية والاحتراز من المرض، مع وجود آراء فقهية أخذت بظاهر الأحاديث النبوية، ورفضت تدابير الوقاية من الوباء.

وكان الطابع الغالب على الحلول التي قدمتها الفتاوى سواء خلال تاريخ المغرب الوسيط أو الحديث هو اتفاقها على أمر موحد في أمر الجوائح و اعتبارها أمرا سماويا لا يد للناس فيه و لا حيلة، ولذلك أفتى الفقهاء في

الغالب لصالح المتضرر، وجعلوه في حل ما يلزمه تجاه شريكه أو صاحبه.[48] فكانت الفتاوى بمثابة سند شرعي اعتمد عليه المتأثرين بتدعيات الكوارث و الأزمات لجبر ضررهم.

سادسا: دور الزوايا

قامت الزاوية كمؤسسة دينية بدور محوري في الحياة الاجتماعية بالغرب الإسلامي، فقد اقترنت نشأتها بالعمل الخيري بموازاة الدور الديني، وكانت الأدوار التي قامت بها خلال الحقبة الحديثة تتحدد وفق الوضع السياسي والاجتماعي السائد، إذ أن هذه الأدوار كانت تتعزز بشكل أكبر خلال فترات ضعف السلطة وخلال أزمنة المساغب و الحروب.

كان الإيواء و إطعام الطعام من خصال شيوخ الزوايا، فالعديد من الزوايا اشتهرت خلال القرن السابع عشر و الثامن عشر"بإطعام الطعام للمساكين والوافدين والملازمين على الدوام حتى صارت عند العوام كأنها من الفروض أو الشروط".[49] و كانت مختلف الفئات تستفيد من هذا الإطعام و الإيواء، وخلال سنوات الجفاف تكفلت بإطعام طلبة العلم والوافدين والمساكين.[50] حتى أنه أصبح من الشائع لدى الناس "إقامة الصوفية والزوايا بإطعام الطعام (...) وخصوصا في البوادي".[51] واعتبرت بعض الزوايا هذه الصنف من السلوكات(الإطعام) من قبيل الجهاد.[52]

وكانت عملية الإيواء والإطعام تنشط خلال حقب المجاعات والمساغب، بل إن بعض الزوايا تحولت إلى مؤسسات للتكافل و التخفيف من حدة الأزمات، إذ تشير المظان التاريخية أن عبد العزيز البوكمازي شيخ زاوية تانغملت وهي إحدى فروع الزاوية الناصرية، أرسل إبنه إبان إحدى المجاعات(القرن السابع عشر) إلى درعة لجلب التمر، ولجأ إلى إطعم الجائعين بالحساء والتمر.[53] بل كانت لهذه الزاوية نظرة استباقية لمواجهة الأزمات، فقد لجأ شيخها زمن الخصب إلى غرس شجر اللوز قرب الزاوية، بهدف إيجاد بعض القوت لسد الرمق أثناء الأزمات المقبلة، وقد اثمرت مبادرته، فحين حلت المسغبة لجأ أحد جيران الزاوية إلى تهيئ عصيد من ثمر اللوز وتقديمه إلى الجياع.[54]

اقتران صفة الإطعام كوظيفة اجتماعية بالزوايا،استحضرت من خلالها بعض المظان التاريخية، وخاصة كتب المناقب سمة أخرى عَدَّتْهَا من كرامات شيوخ الزوايا و المتصوفة ، ويتعلق الأمر بكرامة تكثير الطعام و التي تعبر عن نمط من التفكير ساد لدى فئة خاصة هي المتصوفة، ولكن خلال فترات الأزمة أصبح سلوكا لفئة من العامة التي كانت ترى في الكرامة سبيلا للخلاص من الجوع و المرض. ومن أمثلة هذا الصنف من الكرامات المتعلق ببركة الطعام وتكثيره ما ذكره مريدو الزاوية الوزانية خلال القرن السابع عشر من قصص حول كرامات شيوخ زاويتهم في إطعام الطعام و تكثيره.[55]

عُدَّ التطبيب و العلاج الروحي من بين أدوار الزوايا بالغرب الإسلامي خلال العصر الحديث، فكثير ما شكلت الزوايا مأوى للمعوزين و المرضى الراغبين في الاستشفاء. وجمعت في الكثير من الأحيان بين معالجة النفس والبدن. فخلال الأوقات العصيبة مثل الفتن والحروب والوباء، شكلت الزوايا ما يشبه "المارستان"يجمع بين العمل الخيري والعلاج.[56]

الدور العلاجي إذن كان جزءا من وظائف الزوايا بالغرب الإسلامي، فقد احتفظ العديد من الأولياء وأهل الزوايا بوظيفتهم الطبية، وكانوا يلبون طلب مريدي الاستشفاء خصوصا في حقبة كثرت فيها الأوبئة وتداعياتها النفسية.

تضمنت المتون المناقبية إشارات للوظيفة العلاجية للأولياء ورجال الزوايا، فمضامين هذه المصادر "جاءت عاكسة لانشغلات الناس وهمومهم اليومية، في ظل واقع يتسم بالاضطراب." [57] وزكت مواقفها بحجج لمرضى تلقوا الشفاء على يد المتصوفة والأولياء، و من بين الحالات التي تشير لها كتب المناقب ، المرض الذي ألم بالشريف مولاي علي بن التهامي الوزاني، و الذي عالجه بكل علاج، لكن المرض هاج و زاد، فقصد والده مولاي التهامي بوزان، و الذي "أخذ قطعة من البطيخ وأكل لحمه و ناوله القشرة، و أمره أن يدهن بها أذنه كلها، فلما عاد لمنزله ونام، فما استيقظ حتى وجد الوسادة ملطخة بالدم والقيح والصديد، و أذهب الله عنه ذلك الألم، ولم يعد له قط ببركة والده مولاي التهامي. [58]"

يمكن اعتبار هذه الأشكال من الكرامات نموذجا للحلول التي كانت تعتقد فئات العامة بالغرب الإسلامي جدواها في معالجة الأمراض والأوبئة، غير أن الإقبال على هذا النوع من العلاج له ما يبرره ماديا، ويتعلق الأمر باستفحال الأزمات والكوارث خلال تاريخ الغرب الإسلامي الحديث، مقابل غياب مؤسسات صحية تواكب ذلك.

خاتمة:

إجمالا بيّن التدبير الديني للأزمات والكوارث والأوبئة بالغرب الإسلامي خلال الحقبة الحديثة، الدور المهم الذي قامت به بعض المؤسسات، وأقصد تحديدا الفقهاء والزوايا ،التي لم يكن لها طابع رسمي أي لم تكن جزءا من بنية السلطة بل كانت مؤسسات موازية له، فحضورها خفف من حدة الموجات الوبائية وأزمات الأقوات والحروب، إذ بغض النظر عن الحل المادي الذي كان يقدم لمن مستهم آثار المساغب، فالحلول غير المادية كانت بدورها ذات قيمة، فالعديد من الفتاوى كانت وسيلةً فعالة للوقاية والاحتراز وآليةً لنشر سلوكات التكافل والتطمين والمواساة. كما أسهم المد الصوفي الذي يرجع فيه الفضل للزوايا في التخفيف من حدة الفزع النفسي الناتج عن توالي الأزمات.

الهوامش:

1 . سعاد الحكيم ، المعجم الصوفي: الحكمة في حدود الكلمة، دندرة الطباعة والنشر، بيروت، 1981، الطبعة الأولى، ص827.

2 . محمد بن الطيب القادري، التقاط الدرر و مستفاد المواعظ و العبر من أخبار و أعيان المائة الحادية و الثانية عشر، تحقيق هاشم العلوي القاسمي ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت، 1983، الطبعة1، ص101.

3 . الضعيف، تاريخ الضعيف، تحقيق أحمد العماري، دار المأثورات، الرباط، 1986 ، الطبعة1، ص63.

4 . عبد الرحمن ابن زيدان، المنزع اللطيف في مفاخر المولى اسماعيل بن الشريف، تحقيق عبد الهادي التازي، مطبعة اديال، الدار البيضاء،1993، الطبعة1، ص 60.

5. German Mouette , Histoire de Moulay Ismail, **Les sources Inédites de l'histoire du Maroc :**Archives et Bibliothèques de France, Par H. De Castries, Tome II, la deuxième série - Dynastie filalienne , Edition Paul Geuthner, Paris,1924,p 126.

6. القادري، التقاط الدرر، م.س، ص227.

7 . ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بنمنصور، دار المنصور للطباعة، الرباط، 1973، ص 398.

8 . نفسه.

9 . الضعيف، تاريخ الضعيف، م.س، ص63.

10 . محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر و الثاني، الجزء4 ، تحقيق محمد حجي و أحمد التوفيق، دار المغرب للتأليف و الترجمة و النشر، الرباط، 1978، ص266.

11. الضعيف، تاريخ الضعيف، م.س، ص183.

12 . نفسه

13 . مدينة تقع وسط المغرب ضواحي فاس بالمغرب الأقصى.

14. حاييم الزعفراني، ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب، ترجمة أحمد شحلان و عبد الغني أبو العزم، الدار البيضاء، 1987، ص55.

15. محمد أمين البزاز تاريخ الأوبئة و المجاعات بالمغرب في القرنين 18 و19م، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1992 ، الطبعة1، ص55.

16. ابن زيدان، المنزع اللطيف في مفاخر المولى اسماعيل بن الشريف، م.س، ص 60.

17 . القادري، نشر المثاني،ج2، م.س، ص119.

18, القادري، نشر المثاني، الجزء1 م.س، ص327.

19. ابن الحاج التلمساني، المدخل، الطبعة2، دار الكتاب العربي، بيروت، 1972، ج4، ص123.

20. حسين بوجرة، الطاعون و بدع الطاعون: الحراك الاجتماعي في بلاد المغرب بين الفقيه و الطبيب و الأمير(1350م ـ 1800م) ، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2011، الطبعة1، ص429.

21 . Norman cigar, « Société et vie politique à Fes Sous les premiers Alawites (1660/1830) », Hesperis Tamuda, vol, XVIII, impremerie Agdal, Rabat 1978-1979, p100.

22 . محمد الصغير اليفراني ، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، صحح عباراته التاريخية السيد هوداس، مطبعة بوردين، أنجي، 1988.ص 299.

23. اليفرني، نزهة الحادي م.س، ص43.

24. ابن عسكر، دوحة الناشر بمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق محمد حجي، دار المغرب للتأليف والترجمة و النشر، الرباط، 1977، ص31.

25. B.Rosenberger et H.Triki, « famines et épidémies au Maroc aux XVIe et XVIIe siècles », 1974…op.cit, pp.36-37.

26 . محمد أوسوس، دراسات في الفكر الميثي الأمازيغي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط،2007، ص7.

27. البزاز، تاريخ الأوبئة و المجاعات، م.س، ص 351.

28 . محمد فتحة "أدب النوازل ومسائل الأطعمة بالغرب الإسلامي"، مجلة امل، عدد 16، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء،1999، ص29.

29 . عبد العزيز الزياتي، الجواهر المختارة مما وقفت عليه من النوازل بجبال غمارة، مخطوط بالمكتبة الوطنية بالرباط، رقم 1698/د، ورقة 99.

30 . أحمد بن يحيى الونشريسي، المعيار المعرب و الجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية و الأندلس و المغرب، ج5،خرجه جماعة من الفقهاء تحت إشراف محمد حجي، طبع وزارات الأوقاف و الشؤون الإسلامية بالمغرب، الرباط،1981، ص18.

31 . الونشريسي، المعيار، ج8، م.س، ص275.

32 . الونشريسي، المعيار، ج5، م.س، ص234 . 235.

33 . أبي الوليد أحمد ابن رشد، فتاوى ابن رشد، تحقيق المختار بن الطاهر التليلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987، الطبعة1، ص 1284.

34 . الونشريسي، المعيار ،ج1، م.س، ص385.

35 . نفسه، ص379.

36 . الونشريسي، المعيار ، ج7، م.س، ص332.

37 . الونشريسي، المعيار ، ج1، م.س ، ص12.

38 . الونشريسي، المعيار ، ج1، م.س ، ص18.

39 . الزياتي، م.س، ج2، ورقة 382.

40 . نفسه.

41 . عبد الله معصر، ضوابط الاستهلاك في الفقه الإسلامي، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة، السنة الجامعية 1998-1999 ، دار الحديث الحسنية، الرباط، مرقونة، ص314..

42 . الونشريسي، المعيار، ج5، م.س، ص36.

43 . الونشريسي، المعيار، ج5، م.س، ص87.

44 . الونشريسي، المعيار، ج5، م.س، ص88.

45 . الونشريسي، المعيار، ج5، م.س، ص103.

46 . عبد الله معصر، ضوابط الاستهلاك في الفقه الإسلامي، م.س، ص313..

47 . محمد المنصور، "موقف علماء المغرب من الأوبئة و الإجراءات الصحية الاحترازية"، المعرفة الطبية وتاريخ الأمراض في المغارب، منشورات عكاظ، الرباط، 2011، ص ص 101- 102.

48 . محمد فتحة، النوازل الفقهية و المجتمع: أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي (من القرن 6 إلى القرن 9هـ / 12 . 15م) منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية عين الشق بالدار البيضاء، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1999، ص286.

49 . الحسن اليوسي، المحاضرات في الأدب و اللغة، ج1، تحقيق و شرح محمد حجي و محمد الشرقاوي إقبال، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2006 ، ص314.

50 . القادري، نشر المثاني، ج1، م.س، ص346.

51. اليوسي، م.س، ص320-321.

52 . أحمد بن محمد عمالك، جوانب من تاريخ الزاوية الناصرية، الجزء الثالث، منشورات وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، دار أبي رقراق للطباعة و النشر، الرباط، 2006 ، الطبعة الأولى، ص633.

53 . محمد بن عبد الله الخليفتي، الدرة الجليلة في مناقب الخليفة، تحقيق أحمد عمالك، د.د.ع،كلية الآداب و العلوم الانسانية، الرباط، 1986م،(مرقونة) ، ص 307.

54 .أحمد بن محمد عمالك، جوانب من تاريخ الزاوية الناصرية، م.س،ص633.

55. .محمد العمراني، كتب المناقب و ترسيخ الاعتقاد في الكرامات الصوفية، مجلة أمل، العدد 35، السنة السادسة عشر، 2009م، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص 65.

56 . أحمد بوكاري، الزاوية الشرقاوية: دورها الاجتماعي و السياسي ، الجزء الثاني ، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1989، الطبعة الأولى، ص 18.

57 . محمد العمراني، جوانب من حياة أهل فاس من خلال كتاب « تحفة الإخوان ببعض مناقب شرفاء وزان » لحمدون الطاهري الجوطي، مقالة وردت ضمن كتاب: فاس: التاريخ و التراث و الإشعاع الثقافي، مطبعة الأفق، فاس، 2008، ص 154.

58. . محمد العمراني، كتب المناقب و ترسيخ الاعتقاد في الكرامات الصوفية، م.س، ص ص 57 . 58.